جمال عبد الناصر

1970 - 1918

جمال عبد الناصر هو شخصية كبيرة في التاريخ العربي الحديث. وهو تقييم موضوعي دقيق لشخصيته لا خلاف حوله. أما الخلاف والإختلاف فيتناولان مشروعه والوسائل التي اتبعها لتحقيق هذا المشروع. كما يتناولان مدى الدقة في إعطاء صفة الثورة للإنقلاب العسكري الذي قاده الضباط الأحرار بدور أساسي له في الثالث والعشرين من شهر تموز من عام 1952. إلا أن أهمية الرجل إنما تكمن في أنه فتح الباب على عصر جديد في العالم العربي باسم مشروعه الذي حمّله للثورة. وكانت البداية في تحديد هذا المشروع في كتابه "فلسفة الثورة". ويشير الكتاب إلى طموح جارف عند ذلك الضابط الشاب لإخراج مصر أولاً وإخراج العالم العربي بالتالي من الوضع الآسن الذي كان يسيطر على المشهد في كل مكان. وهو مشروع رومانسي طموح. لكن عبد الناصر سرعان ما اكتشف متأخراً أن الرومانسية لا تصنع تغييراً بمقدار ما تعبّر عن المشاعر في اتجاه ذلك التغيير. واكتشف متأخراً أن وسيلته في مصر أولاً وفي العالم العربي بالتالي لتحقيق طموحاته الرومانسية كانت حافلة بالأخطاء الفادحة. وهي الأخطاء التي أوقعت مصر والجمهورية العربية المتحدة بقيادته في هزائم عسكرية وسياسية خطيرة، وخلخلت مشروعه النهضوي وقادته إلى الفشل. ولأن مشروعه كان يرمي إلى تحقيق نهضة مصر ونهضة العرب، وإلى تحقيق العدالة الإجتماعية المترافقة مع التقدم الإقتصادي باسم الإشتراكية في صيغتها الناصرية، وإلى تحقيق الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج بالقفز فوق الوقائع الصعبة الراسخة عبر الزمن، بكل ذلك وبسببه، فإنه استطاع أن يستنفر بمشروعه الملايين في مصر وفي العالم العربي، وأن يثير في الآن ذاته المشاعر ذاتها في القارة الأفريقية التي تنتمي إليها مصر على امتداد تاريخها الطويل. تضخم مشروع عبد الناصر وحمل معه في

تضخمه عناصر الخلل والفشل. وإذ حاول بعد هزيمة حزيران في عام 1967 أن يستخلص الدروس من التجربة القاسية ومن مرارة الهزيمة، فإنه ظل من حيث الأساس أسير طموحاته وأسير أوهامه في القدرة على تحقيق تلك الطموحات، وأسير النمط الفردي والحزب الواحد في قيادة الدولة والمجتمع.

لكنه كان يعمل جاداً بوسائل جديدة سياسية وفكرية وعسكرية لتجديد مشروعه. تمثل ذلك عسكرياً في الخطة التي وضعها لحرب الإستنزاف في منطقة القنال تمهيداً للعبور الذي قام به بالنيابة عنه بعد وفاته الرئيس أنور السادات في شكل مشوّه مختلف في نتائجه عما كان يحلم هو به. وتمثلت خطة عبد الناصر سياسياً في أمرين: الأول هو سعيه لاستيعاب جميع القوى الوطنية والديمقراطية في الإتحاد الإشتراكي من أجل تأمين شروط النجاح في خطته الجديدة. وكان أهم تدبير في ذلك الإتجاه دعوة الشيوعيين وكافة أهل اليسار ليكونوا جزءاً مكوناً من مشروعه سياسياً وتنظيمياً وفي كل المجالات. الأمر الثاني تمثل في إعطاء المرحلة الجديدة شعاره الشهير "النضال لإزالة آثار العدوان"، تاركاً الباب مفتوحاً على المفاوضات على اختلاف أنواعها. وتمثلت تلك الخطة أخيراً في المجال الفكري بإعطاء صفة الإشتراكية لمشروعه فيما بدا أكثر اقتراباً من الجذور التاريخية للفكر الإشتراكي. وكانت مجلتا "الطليعة" و"الكاتب" ومجلات أخرى ومراكز الأبحاث والمؤسسات الثقافية العديدة الناشئة تشكل ميدان اختبار في إغناء طابع إشتراكي لفكر الثورة، وإغراء الشباب في الإنتماء إلى مشروعه النهضوي المتجدد باسم تلك الأفكار.

لم يخطئ الكثيرون ممن ألفوا الكتب العديدة حول شخصيته وحول مشروعه وحول الدور الكبير الذي مارسه على امتداد حياته في قيادة مصر وفي قيادة الحركة العربية التي ارتبطت باسمه واتخذت لها صفة الحركة الناصرية في أرجاء

العالم العربي، لم يخطئوا في إعطائه صفة الزعيم التاريخي وفي وضعه في مقام الزعماء الكبار لبلدانهم من أمثال غاندي ونهرو ومانديلا وكاسترو وآخرين من النوع ذاته للرجال الكبار في التاريخ الحديث. فهو كان، كما أشرت إلى ذلك، أحد كبار شخصيات تلك المرحلة. حتى الذين كانوا يختلفون معه في أفكاره وفي سياساته، وحتى الذين كانوا معادين له من الطرف الآخر وفي مقدمتهم قادة إسرائيل، لم يستطيعوا إلا أن يتعاملوا معه في حياته وبعد رحيله بصفته أحد كبار عصره.

كيف بدأت الرحلة ومن أين ومع من وفي أي اتجاه وبأية أدوات وآليات وفي أية صيغة؟

ولد جمال عبد الناصر في عام ١٩١٨ في حي باكوس الشعبي في الإسكندرية. كان الابن الأكبر لعبد الناصر حسين الذي ولد في عام ١٨٨٨ في قرية بني مر في صعيد مصر في أسرة من الفلاحين. حصل على قدر من التعليم سمح له بأن يلتحق بوظيفة في مصلحة البريد في الإسكندرية بمرتب يكفي بصعوبة لسداد ضرورات الحياة. التحق جمال بروضة الأطفال بمحرم بك في الإسكندرية. ثم التحق بالمدرسة الابتدائية بالخطاطبه ومدرسة النحاسين الابتدائية بالجمالية في القاهرة بين أعوام 1923 و1925. وأقام عند عمه خليل حسين في حي شعبي لمدة ثلاثة أعوام. وكان يسافر لزيارة أسرته بالخطاطبه في العطلات المدرسية. وحين وصل في الإجازة الصيفية في العام التالي علم أن والدته قد توفيت قبل ذلك بأسابيع. ولم يجد أحد الشجاعة لإبلاغه بموتها. لكنه اكتشف ذلك بنفسه بطريقة هزت كيانه. وبعد أن أتم السنة الثالثة في مدرسة النحاسين في القاهرة أرسله والده في عام ١٩٢٨ عند جده لوالدته حيث أمضى السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة العطارين في الإسكندرية. التحق في عام ١٩٢٩ بالقسم الداخلي في مدرسة حلوان

الثانوية وقضى فيها عاماً واحداً. ثم انتقل في العام التالي إلى مدرسة رأس التين الثانوية في الإسكندرية بعد أن انتقل والده إلى العمل بمصلحة البوسطة هناك. وفي تلك المدرسة بالذات تكوّن وجدانه القومي. ففي عام ١٩٣٠ استصدرت وزارة إسماعيل صدقي مرسوماً ملكياً بإلغاء دستور ١٩٢٣. فقام الطلاب بمظاهرات شارك فيها جمال تهتف بسقوط الإستعمار وبعودة الدستور.

لقد كانت تلك الفترة في الإسكندرية مرحلة تحول في حياة الطالب جمال من متظاهر إلى ثائر في حالة غليان. وإذ أزعج نشاطه المسؤولين في المدرسة أرسلوا تنبيهاً إلى والده. فأرسله إلى القاهرة.

التحق جمال في عام ١٩٣٣ بمدرسة النهضة الثانوية في حي الظاهر في القاهرة. وتابع نشاطه السياسي ليصبح رئيس اتحاد طلاب مدارس النهضة الثانوية. في تلك الفترة ظهر شغفه بالقراءة في كتب التاريخ وفي الموضوعات الوطنية. فقرأ عن الثورة الفرنسية وعن "روسو" و"فولتير". وكتب مقالاً بعنوان "فولتير رجل الحرية" نشرها في مجلة المدرسة. كما قرأ عن "نابليون" و"الإسكندر" و"يوليوس قيصر" و"غاندي" والزعيم المصري مصطفى كامل. وقرأ روايات عربية وأجنبية اختارها بعناية وبوعي. قاده انشغاله بالسياسة إلى الإنضمام إلى حزب "مصر الفتاة" لمدى عامين. ثم خرج منه بعد أن اكتشف أنه لا يحقق له ما كان يحلم به. ثم أقام علاقات مع الإخوان المسلمين. لكنه قرر بعد تلك التجارب ألا ينتسب لأي جماعة من الجماعات أو لأي حزب من الأحزاب القائمة.

عندما أتم جمال دراسته الثانوية وحصل على البكالوريا في القسم الأدبي قرر الالتحاق بالجيش. فبعد التجربة التي مر بها في العمل تولد عنده اقتناع راسخ بأن

تحرير مصر لا يتحقق إلا بجيش وطني قوي. وإذ رفضت الكلية الحربية قبوله انضم جمال في عام ١٩٣٦ إلى كلية الحقوق في جامعة القاهرة ومكث فيها ستة أشهر. وفي عام 1937 كرر طلب الإنتساب إلى الكلية الحربية فقبل طلبه. وبدأ يترقى من رتبة عسكرية إلى أخرى إلى أن أصبح في عام 1942 يوزباشي. وهكذا أصبح جمال عبد الناصر في قلب المكان الذي يقربه من تحقيق حلمه. وكان ذلك المكان هو القوات المسلحة. وبدأ على الفور البحث عن الطريق الذي يقوده إلى تحقيق أحلامه وطموحاته. وبدأ يختار أصدقاءه من بين الضباط الذين سيكونون في فترة قصيرة هم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة.

وفي الواقع فقد كانت تتشكل مجموعة الضباط الأحرار بالتدريج في لقاءات ثنائية أو أكثر من ضباط من رتب مختلفة وفي قطاعات مختلفة. ولم يكن عبد الناصر في البداية أكثرهم بروزاً. إلا أنه صار كذلك بالتدريج وبكفاءة عالية.

سيكون من الصعب تحديد اللحظات التي تشكلت فيها مجموعة الضباط الأحرار. لكنني أفضل شخصياً رواية خالد محي الدين أحد المؤسسين الأوائل للمجموعة وعضو مجلس الثورة بعد انتصارها. يقول خالد في كتاب سيرته الذي يحمل عنوان "والآن أتكلم" عن مرحلة التأسيس في بداياتها الأولى: "كنا في نهاية عام 1944. وكانت الحيرة تغلفنا جميعاً بحثاً عن طريق لنا ولمصر. وذات يوم مر على عبد المنعم عبد الرؤوف وعرض علي أن نلتقي بضابط آخر يحمل ذات الهموم ويبحث عن إجابات لذات الأسئلة. وأخذني لأقابل جمال عبد الناصر. وكان لقائي الأول معه. لكن عبد المنعم عبد الرؤوف ما لبث أن طلب مني أن يعرفني بضابط آخر. وأخذني إلى جزيرة الشاي في حديقة الحيوان حيث قابلت الصاغ محمود لبيب الذي عرفت فيما بعد أنه مسؤول الجناح العسكري في الإخوان

المسلمين. ذهبت في لقائي الأول ومعي عثمان فوزي. وبدأ محمود لبيب يتكلم في تؤدة ويتطرق إلى موضوع الدين دون تعجل. كان يعرف أن محركنا الأساسي ثو القضية الوطنية. فظل يتحدث عن هذا الموضوع ولكن بنكهة إسلامية. وكنت ألح في استخرج إجابات محددة عن أسئلة شغلت بالي طويلاً: الوطن وكيف سنحرره وبأية وسيلة؟ وما هو الموقف من المفاوضات؟ وكان يجيب هو في حذر وذكاء. ولم يكن يريد أن يخسرني بإلقاء الإجابات التقليدية للإخوان. كان يقول: مصر سيحررها رجالها، وشباب القوات المسلحة هم قوتها الضاربة.. وكلام من هذا القبيل. اشتم عثمان فوزي رائحة الإخوان من الحديث. وقال لي ونحن عائدان من مقابلتنا: هذه جماعة خطرة وضارة. لكنني كنت سعيداً بالمقابلة. وقلت إن الوطن بحاجة إلى تضحية، والإتجاه الإسلامي يمكنه أن يبث في الشباب روح التضحية. صمم عثمان فوزي على موقفه. وانسحب ولم يحضر مرة أخرى. وواصلت أنا مقابلاتي مع محمود لبيب. وفي مرة تالية حضر اللقاء جمال عبد الناصر فعبد المنعم عبد الرؤوف. قابلني بجمال. ثم قابل كل منا على انفراد بمحمود لبيب. *وبدأت علاقة من نوع غريب مع جماعة الإخوان. وتكونت مجموعة عسكرية تضم العديد من الضباط. ولم نعد نلتقي في أماكن عامة وإنما بدأنا لعقد اجتماعات منتظمة في البيوت. فكنا نجتمع في بيت مجدي حسنين وأحياناً في بيت الضابط أحمد مظهر. وفي هذه اللقاءات الإخوانية كان يحضر معنا جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وحسين حموده وحسين الشافعي وسعد توفيق وصلاح خليفة وعبد اللطيف بغدادي وحسن ابراهيم. كانت علاقة الإخوان بهذه المجموعة من الضباط تتسم بالحساسية. ففجأة وجد الإخوان أنفسهم أمام كنز من الضباط المستعدين لعمل أي شيء من أجل الوطن.* لكن هؤلاء الضباط لم يكونوا على

ذات الدرجة من الولاء للجماعة. فمثلاً صلاح خليفة وحسين حموده كانا من الإخوان قلباً وقالباً. أما الآخرون فكانوا مجرد عناصر تبحث عن طريق. لسنا ضد الإخوان، بل نحن معهم. لكننا لسنا معهم بالكامل. *فعبد الناصر مثلاً كان يعتقد أن الإخوان يريدون استغلالنا كضباط لنكون أداة في أيديهم ونعطيهم مكانة سياسية بوجود نفوذ لهم في الجيش لكنهم لن يقدموا شيئاً للقضية الوطنية وكأن جمال يلح في الإجتماعات: إذا كان لديكم نصف مليون عضو وأربعة آلاف شعبة فلماذا لا نبدأ بعمليات ضرب ضد الإحتلال ومظاهرات وتحركات جماهيرية؟* وكنت أنا دوماً عنصراً مثيراً للقلق في الإجتماعات. كان عثمان فوزي يلاحقني بالكتب ويدعوني إلى الإهتمام بالقضايا الإجتماعية. وفيما يبدو أنه كان قد أصبح على علاقة فعلية بالحركة الشيوعية. لأنه في ذلك الحين أحضر لي كتاباً ذا غلاف أخضر مطبوعاً بالعربية لروجيه غارودي هو "الإقتصاد محرك التاريخ". وبنهم قرأت الكتاب لأكتشف أن إجابات عديدة بدأت تلاحق ولأربط بين مصر وبين المصريين، بين تحرير الوطن وبين تحرير المواطن. وبدأت مشكلات الوطن الإجتماعية تشغل جزءاً هاماً من تفكيري. وبدأت ألح على محمود لبيب في اجتماعاتنا: *ما هو برنامج الجماعة؟ فيجيب: الشريعة. كنت أقول: كلنا مسلمون، وكلنا نؤمن بالشريعة لكن تحديداً ماذا سنفعل لتحرير الوطن. هل سنخوض كفاحاً مسلحاً أم نقبل بالتفاوض؟ وماذا سنقدم للشعب في مختلف المجالات، في التعليم والإسكان والزراعة وغيرها من القضايا الإجتماعية؟ وكان محمود لبيب يزوغ من الإجابة وأنا أطارده. وانتهى الأمر بأن أحضر لنا الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان... وتتالت مقابلاتنا مع حسن البنا. وقد كان يمتلك حججاً كثيرة لكنها لم تكن كافية ولا مقنعة بالنسبة لأكثرنا. وظل عبد الناصر مستريباً في أن الجماعة تريد أن*

تستخدمنا كمجموعة ضباط لتحقيق أهدافها الخاصة. وظللت أنا أوالي قراءة ما يزودني به عثمان فوزي من كتب. وازداد إلحاحاً في مناقشاتي على ضرورة وضع برنامج للجماعة يحدد أهدافها الوطنية وموقفها من مطالب الفئات المختلفة. وبدأت في هذه المناقشات أنحو منحى يسارياً. وأصبحت نشازاً في مجموعة من المفترض أنها تابعة للإخوان المسلمين. وأخيراً حاول حسن البنا أن يشدنا إلى الجماعة برباط وثيق. وتقرر ضمي أنا وجمال عبد الناصر إلى الجهاز السري للجماعة. ربما لأننا الأكثر فعالية وتأثيراً في المجموعة. ومن ثم فإن كسبنا بشكل نهائي يعني كسب المجموعة بأكملها. وربما لأننا كنا نتحدث كثيرا عن الوطن والقضية الوطنية. ومن ثم فقد تصور حسن البنا أن ضمنا للجهاز السري حيث التدريب على السلاح والعمل المسلح يمكنه أن يرضي اندفاعنا الوطني ويكفل ارتباطاً وثيقاً بالجماعة".

يتوقف خالد محي الدين عند الحدث الكبير الذي وقع في عام 1946 الذي خرجت فيه مظاهرات حاشدة تلبية لدعوة "لجنة الطلبة والعمال" التي كانت مؤلفة من الشيوعيين والديمقراطيين. وكانت الشعارات التي حملتها المظاهرات موجهة ضد الإنكليز مطالبة بإلغاء المعاهدة معهم وبخروج قواتهم من مصر. يقول محي الدين إن السلطات طلبت من القوات المسلحة التي كان يقودها قمع المظاهرات وتفريقها بالقوة. وكان الوضع صعباً عليه. وأنقذه من الصعوبة التي واجهته قرار مفاجئ بعدم زج الجيش في عمليات القمع. ويتابع محي الدين روايته للمراحل الأولى في تشكيل مجموعة الضباط الأحرار مع جمال عبد الناصر الذي كان الأقرب إليه من سائر الضباط فيتحدث عن الحذر الذي تزايد عنده وعند عبد الناصر إزاء الإخوان المسلمين، وعن بداية العلاقة مع الشيوعيين عن طريق

القاضي أحمد فؤاد الذي بادر إلى إقامة علاقة مع خالد أولاً ثم مع جمال فيما بعد. الأمر الذي جعل الشيوعيين في أساس تنظيم الضباط الأحرار. ويؤكد محي الدين ما صار معروفاً في روايات أخرى الدور الذي مارسته في التسريع في تشكيل تنظيم الضباط الأحرار تلك الحرب البائسة التي خاضتها الجيوش العربية ضد العصابات الصهيونية وضد قوات الإنتداب البريطاني لمنع تنفيذ قرار تقسيم فلسطين بين دولة عربية ودولة يهودية. وكان عبد الناصر يشارك في تلك الحرب التي اشتهرت فيها قضية الأسلحة الفاسدة والقرارات الإنهزامية التي كادت تودي بالجيش المصري الذي كان محاصراً على أرض فلسطين إلى آخر الرواية التي صارت تعرف بنكبة فلسطين.

تأسست الخلية الأولى لتنظيم الضباط الأحرار في النصف الثاني من عام 1949. وكانت مؤلفة من جمال عبد الناصر وخالد محي الدين وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وعبد المنعم عبد الرؤوف. وصار يكبر التنظيم ويزداد عدد أعضائه إلى أن صدر المنشور الأول. وبدأت تتحدد أهداف الضباط الأحرار إلى أن اتخذت صيغة بيان يحدد أهدافهم بوضوح. وهي تتلخص بالآتي: 1- القضاء على الإستعمار الأجنبي وأعوانه والخونة في وادي النيل. ويتضمن هذا الهدف تفاصيل تشمل الأسباب الداعية إلى التحرر من الإستعمار والسبل المؤدية إلى ذلك الهدف. 2- تكوين جيش وطني قوي وتأمين مستلزمات ذلك بالتفصيل. وينتهي البيان بالكلمة التالية: "ليس لمصر أهداف عدوانية. لكننا يجب أن نكون قادرين على دفع أي نوع من العدوان سواء كان سياسياً أو اقتصادياً او عسكرياً".

ثم اختلف الضباط الأحرار مع الشيوعيين لأسباب يعتبر خالد محي الدين أن الشيوعيين يتحملون قسطاً كبيراً منها. وكان الضباط الأحرار قد اختلفوا قبل ذلك

مع الأخوان المسلمين. واتخذوا لحركتهم صفة الإستقلال عن أي حزب مصري قائم. وكانت مصر في مطالع الخمسينات تتفجر غضباً ضد الإحتلال وضد الملك وضد الفساد الذي استشرى في الدولة وفي حاشية الملك وضد المظالم الإجتماعية في أوجهها المختلفة. وكان الوضع يزداد ملاءمة لانتقال الضباط الأحرار إلى العمل. ورغم أن الخلافات كانت قد بدأت حول الزعامة في السنوات القليلة السابقة على الإنقلاب إلا أنها لم تؤثر على وحدتهم في مواجهة المهمة الكبيرة التي كانوا يعدون أنفسهم لتحقيقها. وجاء الموعد سريعاً لتنفيذ تلك المهمة. وكان حريق القاهرة اللحظة المناسبة. ويبقى السؤال حول الجهة التي هيأت للحريق ونفذته من دون جواب حقيقي برغم كثرة التحليلات. ولن أجرؤ على تبني فرضية أن للضباط الأحرار ضلعاً في ذلك الحريق، رغم أن الحريق كان عاملاً مساعداً لاستعجال الضباط الأحرار بتنفيذ خطتهم في الإستيلاء على السلطة. وللتاريخ لا بد من الإشارة إلى الدور الحاسم على الأرض الذي قام به الضابط الشيوعي يوسف صديق حين استولت قواته على شوارع القاهرة. وهو ذاته الضابط الذي لم يتأخر الفريق القوي داخل مجلس قيادة الثورة بزعامة جمال عبد الناصر للتخلص منه، ثم للتخلص من خالد محي الدين بالذات أحد أوائل مؤسسي حركة الضباط الأحرار. وكان ذلك القرار الذي أدى إلى خروج هذين الضابطين الكبيرين من مجلس قيادة الثورة تعبيراً عن خلافات قديمة لم تلبث أن انفجرت بعد انتصار الثورة، واتخذت أشكالاً وأبعاداً مختلفة. وكان الأساسي في تلك الخلافات يدور حول مسألتين. تمحورت المسألة الأولى حول زعامة الثورة بعد انتصارها. وكان البطل الذي خرج من تلك الخلافات زعيماً بالتدريج للثورة هو جمال عبد الناصر. وتمحورت المسألة الثانية حول شكل النظام الجمهوري وحول أدواته. وكانت الديمقراطية هي الأساس

في هذه المسألة التي دفع خالد محي الدين ثمن تمسكه بها وجوده في مجلس قيادة الثورة ومعه يوسف صديق. وهكذا تكونت في الأعوام الثلاثة الأولى الإتجاهات الأساسية للثورة كما حدد وجهتها جمال عبد الناصر، الذي صار الزعيم الأوحد في البلاد. وكان أول ما قامت به الثورة عن سابق تصور وتصميم إعدام اثنين من العمال كانا يقودان مظاهرة تحدد مطالب العمال من السلطة الجديدة. والعاملان هما خميس وبقري. وكان الهدف من ذلك القرار الخطير توجيه الإنذار إلى الذين كانوا من جهة اليسار يحاولون الوقوف في وجه الطابع العسكري للسلطة الجديدة دفاعاً عن الديمقراطية التي لم تستطع كل محاولات الحكم الملكي الحد منها بما في ذلك بالقمع الوحشي الذي كان آخر نموذج له أحداث عام 1946 المشار إليها آنفاً. تبع إعدام العاملين قرار حاسم بحل جميع الأحزاب تحت طائلة القمع الشديد. وكان القمع شديداً لكل من حاول أن ينظم قواه في أحزاب غير مرخصة. وكان الشيوعيون والأخوان المسلمون الهدف المباشر للقمع، بسبب ومن دون سبب. وكانت محاولة الإخوان المسلمين اغتيال الرئيس عبد الناصر سبباً إضافياً لإحكام القبضة الحديدية للعسكر من موقعهم في السلطة ضد كل محاولة تستهدفهم وتستهدف سلطانهم. وكان ما كان من تفاصيل أحداث لسنا بحاجة إلى التذكير بها لأن أحداثاً كبرى سرعان ما جاءت لتطغى عليها.

وقبل أن ندخل في مسلسل التحولات التي شهدتها شخصية جمال عبد النصر بعد أن أصبح بالإنتخاب رئيساً لجمهورية مصر الأولى في التاريخ، أحب أن أذكر ببعض ما جاء في كتاب عبد الناصر "فلسفة الثورة" لأهميته. وأنقل فيما يلي فقرات من هذا الكتاب تعبّر عن الطموح الجارف الذي كان يسيطر على مشاعر عبد الناصر وعلى عقله وعلى أفكاره مشوباً بالقلق ومترافقاً بالبحث عن أجوبة

تتسابقها أسئلة كبيرة وصغيرة: "... إن الحديث عن فلسفة ثورة 23 يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون في البحث عن جذورها الضاربة في أعماق تاريخ شعبنا. وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء. كذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات. إن كفاح أي شعب جيلاً بعد جيل بناء يرتفع حجراً فوق حجر. وكما أن كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب. كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه. وهو في نفس الوقت مقدم ة لحدث ما زال في ضمير الغيب. ولست أريد أن أدعي لنفسي مقعد أستاذ التاريخ. ذلك آخر ما يجري به خيالي. ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدئ في دراسة قصة كفاح شعبنا فإني سوف أقول مثلاً: إن ثورة 23 يوليو هي تحقيق للأمل الذي راود شعب مصر منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه بأيدي أبنائه، وفي أن تكون له بنفسه الكلمة العليا في مصيره... قلت إن هذا السؤال طالما ألح على خواطري. ألح عليها ونحن في دور الأمل والتفكير والتدبير بعد 23 يوليو. وألح عليها ف مراحل كثيرة من التجربة بعد 23 يوليو. ولقد كانت أمامنا مبرنما كانت تلك المعرفة أملاً انعقد عليه إجماع جيلنا كله. أما الإجابة عن السؤال الثاني "ما طريقنا إلى هذا الذي نريد؟" فأنا أعترف أنا تغيرت في خيالي كما لم يتغير شيء آخر. وأكاد أعتقد أيضاً أنها موضوع الخلاف الأكبر في هذا الجيل! وما من شك في أننا جميعاً نحلم بمصر المتحررة القوية. ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصري ومصري. أما الطريق إلى التحرر والقوة فتلك عقدة العقد في حياتنا. ولقد واجهت تلك العقدة قبل 23 يوليو 1952. وظللت أواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضحت لي زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخيفها، وبدت أمام بصيرتي آفاق كان الظلام الذي ساد وطننا قروناً

طويلة يلفها فلا أراها. لقد أحسست منذ انبثق الوعي في وجداني أن العمل الإيجابي وجب أن يكون طريقنا. لكن أي عمل؟.... وكثيراً ما يجيئني من يقول لي: لقد أغضبتم كل الناس". وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائماً: ليس غضب الناس هو العامل المؤثر في الموقف. إنما السؤال: هل الذي أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره؟ أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك... ثم أعود إلى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به. ذلك هو الدور وتلك هي ملامحه. وهذا هو مسرحه ونحن وحدنا بحكم "المكان" نستطيع القيام به....".

استتبت الأمور في عام 1954 لجمال عبد الناصر. وصار الزعيم المطلق للبلاد بعد انتخابه من قبل الشعب رئيساً للجمهورية. وبدأ يطبق على طريقته وباسم الثقة التي أولاها إياه الشعب برنامجه السياسي والإقتصادي والإجتماعي. وكان الإصلاح الزراعي من أولى قراراته التاريخية. وأسس حزباً وحيداً هو هيئة التحرير ثم الإتحاد القومي. ثم أبدلهما بالإتحاد الإشتراكي. وأجرى صفقة سلاح كبيرة مع الدول الإشتراكية. ودخل مع نهرو وسوكارنو وشوان لاي وبندرنيكا وتيتو في تأسيس حركة عدم الإنحياز التي سرعان ما اتسعت رقعتها لتصبح ذات وزن كبير في الأمم المتحدة بانضمام أعداد كبيرة من الدول الفتية التي نالت استقلالها تباعاً في خمسينات وستينات القرن. ووقع اتفاقاً مع الإتحاد السوفياتي لإنشاء السد العالي. وعزز قراراته السابقة بتأميم قناة السويس، الحدث الأكبر الذي استدعى عدواناً عسكرياً من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل اشترك الإتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة الأميركية بإدانته في الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرار يفرض على الدول الثلاثة أن تسحب قواتها فوراً من مصر وسط إنذار سوفياتي أطلقه بولغانين رئيس وزراء الإتحاد السوفياتي بالتدخل إذا لم ينفذ القرار بالإنسحاب. ورغم أن قرار تأميم

القناة اعتبر من قبل كثيرين مغامرة غير محسوبة النتائج سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، فإن عبد الناصر قد كسب فيه تأييد الشعب المصري والشعوب العربية وأصبح بطلاً قومياً من دون منازع. لكن عبد الناصر الخارج من تلك الإنتصارات ومن تلك الإنجازات التي حققها في الأعوام الأربعة الأولى من استلام السلطة وفي العامين اللذين صار فيهما القائد المطلق للبلاد، إن ذلك جعله يدخل في مغامرات انتهت جميعها بهزائم سياسية له. تمثلت المغامرة الأولى بالدخول في وحدة اندماجية مع سوريا وتأسيس الجمهورية العربية المتحدة. وهي الوحدة التي قامت على القسر، تطبيقاً لحلم لم تكن متوفرة شروطه لتحقيق وحدة الأمة العربية على الطريقة البسماركية. وقد فشلت الوحدة وانهارت بعد ثلاثة أعوام من قيامها استعدى فيها عبد الناصر قوى عديدة كان الشيوعيون في سوريا ومصر أكبر ضحاياها. ومات تحت التعذيب في سجون مصر التي غصت بكبار المثقفين والقادة السياسيين قائدان شيوعيان هما شهدي عطية الشافعي وفريد حداد. ولحق لبنان نصيب من القمع تمثل باغتيال الزعيم الشيوعي فرج الله الحلو وتذويب جسده وإلقائه في مجارير مدينة دمشق. وكانت المغامرة الثانية في الدخول العسكري في اليمن لدعم انقلاب السلال. وكان ذلك التدخل العسكري في اليمن مكلفاً سياسياً وعسكرياً لرصيد الرئيس عبد الناصر. أما المغامرة الثالثة فكانت باستدراج اسرائيل في عام 1967 إلى حرب انتهت بالهزيمة النكراء التي فرضت على الرئيس عبد الناصر أن يقدم للشعب المصري استقالته من مسؤولياته تأكيداً منه لمسؤوليته عن الهزيمة. لكن الشعب المصري رفض الإستقالة لأنه لم يكن يرى بوعي عفوي عنده بديلاً من عبد الناصر للخروج من آثار تلك الهزيمة.

لم يستفد الرئيس عبد الناصر من تلك المغامرات إلا بعد هزيمة حزيران. لكنه ظل، وهو يعلن أمام الملأ الدروس التي قدمتها له تلك التجارب والمغامرات والهزائم، متمسكاً بنهجه الذي قامت حركة الضباط الأحرار بعد انتصارها عليه. فإذا كان قد عبّر في الكثير من خطبه، وفي الميثاق القومي وفي بيان 30 مارس، عن إيمانه بالإشتراكية حلاً حتمياً لمشاكل مصر وطريقاً حتمياً لتطورها في اتجاه التقدم واللحاق بالعصر، فإنه اعتمد التجربة الإشتراكية بنموذجها السوفياتي طريقه إلى ذلك الحل الإشتراكي الذي حلم به في مصر تحقيقاً لنهضتها. وظل في الآن ذاته، بحكم ما لقيه من دعم جماهيري مصري وعربي منقطع النظير، يتعامل مع القضايا كزعيم فرد إلى الحد الذي وصفه ذات يوم محمد حسنين هيكل بأنه هو البديل من أي حزب. إذ يكفي أن يطل من شرفة منزله أو من شرفة مكتبه، أو أن يصدح بصوته في الإذاعة أو التلفزيون، حتى تخرج الجماهير لتلبي نداءه من دون تردد. وكان الرئيس عبد الناصر يصدق ذلك ويتصرف على أساسه.

لنقرأ بعض النصوص البالغة الدلالاة في الميثاق القومي الذي نادى بتحالف قوى الشعب العامل. "فالثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الأمة العربي أن تخلص نفسها من الأغلال التي كبلتها ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها. فإن عوامل القهر والإستغلال التي تحكمت فيها طويلاً ونهبت ثرواتها لن تستسلم بالرضا. وإنما لا بد على القوى الوطنية أن تصرعها وأن تحقق عليها انتصاراً حاسماً ونهائياً. والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذي أرغمت عليه الأمة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والإستغلال. فإن وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على أن تطوي مسافة التخلف الذي طال مداه بين الأمة العربية وبين غيرها من الأمم السابقة في التقدم. ولا بد والأمر كذلك من مواجهة جذرية لأمور تكفل

تعبئة جميع الطاقات المعنوية والمادية للأمة لتحمل هذه المسؤولية. والثورة بعد ذلك هي الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدي الكبير الذي ينتظر الأمة العربية وغيرها من الأمم التي لم تستكمل نموها. ذلك التحدي الذي تسببه الإكتشافات العلمية الهائلة التي تساعد على مضاعفة الفوراق ما بين التقدم والتخلف. فإنها بما توصلت إليه من المعارف تيسر للمتقدمين أن يكونوا أكثر تقدماً، وتفرض على الذين تخلفوا أن يكونوا، بالنسبة إليهم، أكثر تخلفاً برغم كل ما قد يبذلونه من جهود طيبة لتعويض ما فاتهم. إن الطريق الثوري هو الجسر الوحيد الذي تتمكن به الأمة العربية من الإنتقال بين ما كانت فيه وبين ما تتطلع إليه. والثورة العربية، أداة النضال العربي الآن وصورته المعاصرة، تحتاج إلى أن تسلح نفسها بقدرات ثلاث تستطيع بواسطتها أن تصمد لمعركة المصير التي تخوض غمارها اليوم، وأن تنتزع النصر محققة أهدافها من جانب، ومحطمة جميع الأعداء الذين يعترضون طريقها من جانب آخر. وهذه القدارت الثلاث هي: أولاً الوعي القائم على الإقتناع العلمي النابع من الفكر المستنير والناتج من المناقشة الحرة التي تتمرد على سياط التعصب أو الإرهاب. ثانياً الحركة السريعة الطليقة التي تستجيب للظروف المتغيرة التي يجابهها النضال العربي، على أن تلتزم هذه الحركة بأهداف النضال وبمثله الأخلاقية. ثالثاً الوضوح في رؤية الأهداف ومتابعتها باستمرار، وتجنب الإنسياق الإنفعالي إلى الدروب الفرعية التي تبتعد بالنضال الوطني عن طريقه وتهدر جزءاً كبيراً من طاقته... إن واجهة الديمقراطية المزيفة لم تكن تمثل إلا ديمقراطية الرجعية. والرجعية ليست على استعداد لأن تقطع صلتها بالإستعمار أو توقف تعاونها معه. لذلك فلقد كان المنطق الطبيعي، بصرف النظر عن الواجهات الخارجية المزيفة، أن نجد الوزارات في عهد ديمقراطية الرجعية وفي ظل ما كان

يسمى بالإستقلال الوطني لا تستطيع أن تعمل إلا بوحي من ممثل الإستعمار في مصر. بل إنها في بعض الأحيان لم توجد إلا بمشورته وبأمره. بل وصل الحال في إحدى المرات أنها جاءت إلى الحكم بدباباته. إن ذلك كله يمزق القناع عن الواجهة المزيفة. ويفضح الخديعة الكبرى في ديمقراطية الرجعية. ويؤكد عن يقين أن لا معنى للديقمراطية السياسية أو للحرية في صورتهما السياسية من غير الديمقراطية الإقتصادية أو الحرية في صورتها الإجتماعية.... إن الحرية الإجتماعية طريقها إلى الإشتراكية. إن الحرية الإجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلا بفرصة متكافئة أمام كل مواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية. إن ذلك لا يقتصر على مجرد إعادة توزيع الثروة الوطنية بين المواطنين، وإنما هو يتطلب أولاً وقبل كل شيء توسيع قاعدة هذه الثروة الوطنية بحيث يستطيع الوفاء بالحقوق المشروعة لجماهير الشعب العاملة. إن ذلك معناه أن الإشتراكية بدعامتيها من الكفاية والعدل هي طريق الحرية الإجتماعية. إن الحل الإشتراكي لمشكلة التخلف الإقتصادي والإجتماعي في مصر وصولاً ثورياً إلى التقدم لم يكن إفتراضاً قائماً على الإنتقاء الإختياري، وإنما كان الحل الإشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الآمال العريضة للجماهير كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين..."

أما بيان 30 مارس فيحدد، في ضوء الهزيمة البنود الأساسية للدستور الجديد. "1- أن ينص الدستور على تحقيق وتأكيد الإنتماء المصري إلى الأمة العربية تاريخياً ونضالياً ومصيرياً، وحدة عضوية فوق أي فرد وبعد أي مرحلة. 2- أن ينص الدستور على حماية كل المكتسبات الإشتراكية وتدعيمها، بما في ذلك النسبة المقررة في الميثاق للفلاحين والعمال في كل المجالس الشعبية المنتخبة واشتراك

العمال في إدارة المشروعات وأرباحها، وحقوق التعليم المجاني والتأمينات الصحية والإجتماعية وتحرير المرأة وحماية حقوق الأمومة والطفولة والأسرة. 3- أن ينص الدستور على الصلة الوثيقة بين الحرية الإجتماعية والحرية السياسية، وأن تتوفر كل الضمانات للحرية الشخصية والأمن بالنسبة لجميع المواطنين في كل الظروف، وأن تتوفر أيضاً كل الضمانات لحرية التفكير والتعبير والنشر والرأي والبحث العلمي والصحافة. 4- أن ينص الدستور على قيام الدولة المصرية وإدارتها. لأن الدولة العصرية لم تعد مسألة فرد ولم تعد بالتنظيم السياسي وحده، وإنما أصبح للعلوم والتكنولوجيا دورها الحيوي. لهذا فإنه يجب أن يكون واضحاً أن رئيس الجمهورية يباشر مسؤولية الحكم بواسطة الوزراء وبواسطة المجالس المتخصصة التي تضم خلاصة الكفاءة والتجربة الوطنية بما يحقق إدارة الحكومة عن طريق التخصص واللامركزية. 5- أن ينص الدستور على تحديد واضح لمؤسسات الدولة واختصاصاتها بما في ذقتصادية والإجتماعية. كذلك فإن من المرغوب فيه إفساح الفرصة لوسائل الرقابة البرلمانية والشعبية لتحقيق حسن الأداء وكفالة أمانته. 6- أن ينص الدستور على تأكيد أهمية العلم باعتباره المعيار الوحيد للقيمة الإنسانية. 7- أن ينص في الدستور على ضمانات بحماية الملكية العامة والملكية التعاونية والملكية الخاصة وحدود كل منها ودوره الإجتماعي. 8- أن ينص في الدستور على حصانة القضاء. وأن يكفل حق التقاضي ولا ينص في أي إجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء. ذلك أن القضاء هو الميزان الذي يحقق العدل ويعطي لكل ذي حق حقه، ويرد أن اعتداء على الحقوق والحريات. 9- أن ينص في الدستور على إنشاء محكمة دستورية عليا سكون لها الحق في تقرير دستورية القوانين وتطابقها مع الميثاق ومع الدستور. 10- أن ينص في الدستور

علىحد زمني معين لتولي الوظائف السياسية التنفيذية الكبرى وذلك ضماناً للتجدد وللتجديد باستمرار".

ويقول في تحديد مفهومه للإشتراكية في الخطاب الذي ألقاه في عيد العلم في عام 1964:"

"وإذا كنا قد اخترنا الطريق الإشتراكي للبناء فإن الإشتراكية لا يمكن أن تكون إلا إشتراكية علمية. إن مجتمع الإشتراكية ليس جمعية خيرية تتبع معاييرها من نزعة الإحسان لدى كل المتبرعين بجهدهم أو بمالهم فيها. وإنما الإشتراكية فكر وسلوك علمي ينبع من الحق السياسي والإقتصادي والإجتماعي لكل إنسان حر يعيش ويعمل فوق التربة الوطنية وليس الإنتاج تجمعاً حول نداء صادر إلى كل الأيدي أن تجتمع وتضع يدها في العمل. إنما الإنتاج العلمي تجمع حول رسم تفصيلي يحدد لكل يد موقعها من العمل.. إنه يستمد قدرته على الإنجاز من أدوار مرسومة وفق خطة شاملة. وليست الخدمات هدايا من المباني تبعثرها الدولة على رقعة الوطن. إنما الخدمات خط مواصلات هندسي علمي يتعين عليه أن ينقل ويحمل مطالب التعليم والعلاج والثقافة ومختلف أنواع التأمين لكل فرد بنفس المنطقة".

ويقول في الدفاع عن الإشتراكية في تصريحات أدلى بها للوفد الصحفي العراقي بالقاهرة (1966): "إن الحملة ضد الإشتراكية في البلاد العربية موجهة من تحالف رأس المال والإقطاع وأيضاً من الإستعمار. لأن الإستعمار في بلدنا لم يستطع أن يتمكن إلا بالتحالف مع الإقطاع ورأسم المال. واتخذوا من الدين ذريعة ليقولوا أن الإشتراكية ضد الدين. كيف تكون الإشتراكية ضد الدين إذا كانت

الإشتراكية هي المساواة بين الناس. فالدين نادى بالمساواة. وإذا كانت الإشتراكية هي تكافؤ الفرص فالدين نادى بتكافؤ الفرص. وإذا كانت الإشتراكية هي رفع مستوى المعيشة فالدين نادى برفع مستوى المعيشة.. الإشتراكية هي العدالة الإجتماعية بمعناها الصحيح لا المعنى المخادع الذي تنادي به الرجعية والرأسمالية حينما تريد أن تخدر المحرومين وتخدر الناس المستغلين تنادي بالإصلاح الإجتماعي. وهي بهذا تعطي بعض الفئات مما تملك للناس حتى تلهيهم".

كانت هزيمة حزيران بالنسبة للرئيس جمال عبد الناصر إنذاراً كبيراً ومنطلقاً لجملة من الإصلاحات في جهاز الدولة وفي مؤسساتها وفي مجمل أوجه النشاط في الميادين الثقافية والإقتصادية والإجتماعية. وكانت نقطة البداية في تلك الإصلاحات المؤسسة العسكرية. إذ اكتشف متأخراً حجم الفساد الذي كان سائداً في المؤسسة العسكرية. فأعطى لهذه المهمة جهداً استثنائياً. وكان هدفه المعلن والمضمر هو إعداد الجيش لكي يكون مؤهلاً في وقت معين لاستعادة الأرض. وكانت حرب الإستنزاف في القناة هي التمرين استعداداً لذلك اليوم الآتي. لكنه لم يكتف بذلك. بل هو استنفر كل قوى المجتمع للوقوف معه في سلسلة الإصلاحات الأخرى. وكان قد أفرج عن الشيوعيين في عام 1964 ودعاهم للإلتحاق بمشروعه والدخول في الإتحاد الإشتراكي أفراداً ومجموعات، وأن يبدأوا بحل تنظيماتهم الحزبية. فاستجابوا له وصاروا جزءاً من مشروعه ودخلوا في مختلف المؤسسات السياسية والإقتصادية والثقافية والإعلامية والإجتماعية. وأعطاهم مراكز أساسية في الإتحاد الإشتراكي، لا سيما في التنظيم الطليعي داخل الإتحاد، الذي أراد منه إعطاء طابع حزبي فاعل بدلاً من الطابع الفضفاض للإتحاد الإشتراكي في صيغته

العامة التي جعلت كل الشعب أعضاء فيه، وتحوّل إلى عبء سياسي على الرئيس وعلى سلطته.

إلا أن مجمل تلك الإصلاحات لم تكن كافية ولا قادرة على تصحيح ما كان قد ساد طويلاً في أجهزة الدولة وفي مؤسساتها وفي المجتمع. يضاف إلى ذلك أن منطق الدولة الصارمة ظل هو البديل من تحرير المجتمع وتحرير إرادة الأفراد والمجموعات من الطابع القسري الذي ساد في توحيد الشعب حول الرئيس وحول سلطته وحول مشروعه. وبدأت تبرز بوضوح، وسط نقاط الضعف المشار إليها، مساوئ الدكتاتورية الفردية والحزب الواحد التي اتخذت صفة الديمقراطية الإجتماعية على حساب الديمقراطية السياسية، أسوة بما كان سائداً في البلدان الإشتراكية. وسرعان ما بدأ الشباب يخرجون إلى الشارع للتعبير عن إرادتهم الحرة، وللإحتجاج على ما اعتبروه عناصر سوء في النظام، ودفاعاً عن مطالب لهم اعتبروها مشروعة. وكان خريف عام 1968 حافلاً بتلك المظاهرات التي قمعت باعتبارها مظهراً من مظاهر الردة والثورة المضادة. وأذكر أنني التقيت في شهر كانون الثاني من عام 1969 بواسطة خالد محي الدين مع وزير الداخلية آنذاك شعراوي جمعة في مقر مجلس قيادة الثورة. تحدثنا طويلاً حول ما كان يجري في مصر وفي العالم العربي وحول المستقبل. وعبّر لي عن قلقه من ظاهرة خروج الشباب من أبناء الثورة إلى الشارع ضد ثورتهم. فقلت له بأن على المسؤولين وهو واحد منهم أن يقرأوا التجربة برمتها ليعرفوا الخلل الذي جعل أبناء الثورة يثورون ضدها وضد رموزها وضد مشروعها.

وتراكمت المصاعب أمام الرئيس عبد الناصر في العامين الأخيرين من حياته، في داخل مصر وفي العالم العربي. وكان أكثر ما واجهه وآلمه تلك المواقف التي

اتخذتها التنظيمات الفلسطينية ضده في موضوع التفاوض تحت عنوان "إزالة آثار العدوان". وكان آخر تلك الصعوبات المؤلمة والمرهقة ما تمثل بمجازر أيلول ضد الفلسطينيين في الأردن التي دعا الرئيس عبد الناصر ذاته إلى مؤتمر عاجل لقمة عربية من أجل إيجاد حل ينقذ الفلسطينيين وينقذ ثورتهم من الهلاك. ولأن الصعوبات كانت قد أرهقته إلى الحدود القصوى فقد غادر الحياة في أعقاب ذلك المؤتمر في الثامن عشر من شهر أيلول من عام 1970. وأثار غيابه المفاجئ عاصفة شعبية غير مسبوقة في العالم العربي حداداً عليه واحتجاجاً على رحيله قبل الأوان. وأحدث رحيله دوياً على الصعيد العالمي كذلك. لكن الرحيل كان البداية في اتجاه الإنحدار نحو مستقبل مظلم استمر منذ العام الثاني لرحيله في عهد الرئيس السادات حتى نهاية عهد الرئيس حسني مبارك على يد ثوار الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني من عام 2011.

لقد طرحت أسئلة كثيرة حول الرئيس عبد الناصر منذ بدايات بروزه في تنظيم الضباط الأحرار ثم في مجلس قيادة الثورة ثم في فترة رئاسته المتواصلة حتى آخر أيام حياته. تلك الأسئلة في الأساسي منها تمحورت حول الثورة معنى ودوراً ومشروعاً للتغيير وحول دور الفرد في الثورة، وحول دور الفرد في التاريخ، وحول جوهر العلاقة بين الثورة والدولة وحول حرية الأفراد والجماعات وحول الدور الذي يعود لهم في تحقيق التغيير باسم الثورة. وكان الشيوعيون العرب قد أقاموا علاقات مع مسؤولين في قيادة الثورة، وأجروا نقاشات فيما بينهم ومع بعض أركان النظام في مصر حول الثورة وحول مستقبلها. وكانت قد نشأت بين حزبنا الشيوعي وقيادات الإتحاد الإشتراكي علاقات جيدة ابتداء من عام 1966 بعد الخروج من أزمة العلاقات الحادة من الخصومة التي سادت بيننا وبين الرئيس عبد الناصر في

أعقاب الوحدة المصرية السورية. وكنت من اكثر الشيوعيين اللبنانيين الذين أتيحت لهم لقاءات مع القيادات الأولى في الإتحاد الإشتراكي على امتداد عدة أعوام، قبل وفاة الرئيس عبد الناصر وبعد وفاته في زمن الرئيس أنور السادات. وكنت من أكثر الذين كتبوا حول ظاهرة عبد الناصر. وساورتني منذ البدايات فكرة أرقتني كثيراً مفادها أن ثورة تموز التي كانت انقلاباً عسكرياً بكل المعاني قد قطعت تطوراً ديمقراطياً كان يحصل في المجتمع المصري، وأخرت بذلك، برغم كل ما ارتبط بها من إنجازات سياسية واقتصادية واجتماعية، ما كان يمكن أن يقود إليه الصراع في ظل الديمقراطية وتعدد الأحزاب من احتمال قيام نهضة مصرية جديدة. ذلك أن قمع الديمقراطية وتوحيد المجتمع بالقسر قد أفقدا المجتمع حيويته، وعطلا الإرادة الحرة في صنع التقدم من خلال العمل السياسي الحر. ولعل الرئيس عبد الناصر كان يستلهم نموذج أتاتورك في تحقيق مشروعه. إلا أنه لم يستطع أن يحقق ما استطاع أن يحققه أتاتورك في تركيا، وذلك لفقدان عناصر أساسية عنده كانت متوفرة عند أتاتورك.

برحيل الرئيس عبد الناصر تراجعت حركة التحرر الوطني العربية. وسادت في العالم العربي قوى قادت البلدان العربية في الإتجاه النقيض لتحررها. واتخذت أنظمة الإستبداد فيها ابشع صورها. وذهبت أدراج الرياح الوعود التي حملها الرئيس عبد الناصر إلى شعب مصر وإلى سائر الشعوب العربية باسم الحرية والإشتراكية والوحدة. وبقي من نظامه السابق الوجه السيئ فيه المرتبط بحكم الفرد وبتسلط أجهزة المخابرات على حياة الناس. وبقي سؤال محير كان يفترض بالرئيس عبد الناصر ذاته الإجابة عنه: لماذا اختار خليفة له عن سابق تصور وتصميم الرجل الذي لم يكن يثق به، أنور السادات. وهو الذي ما أن صعد بعد وفاة

الرئيس عبد الناصر إلى سدة الرئاسة بالوكالة أولاً ثم بالإنتخاب حتى بدد تلك الوعود التي ارتبطت باسم الناصرية. وأوكلت إلى خلف الرئيس السادات بالوكالة أولاً ثم بالإنتخاب إلى حسني مبارك مهمة الإستمرار في تصفية الجيد من التركة الناصرية لصالح السيئ فيها المرتبط بالإستبداد. لكنني، بالرغم من كل ما ارتبط من عناصر خلل في قيادة الرئيس عبد الناصر لتلك الحركة في مصر وفي العالم العربي وحتى في أفريقيا، فإن شخصيته ستظل تعبّر عن ظاهرة استثنائية غير مسبوقة في التاريخ الحديث للعالم العربي.